دلال الكتب ودوره في بيع وشراء الكتب عند المسلمين

اعداد
د . ياسر رجب على سليمان
المدرس بقسم المكتبات والمعلومات
كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي

ملخص :

يتناول البحث موضوع دلال الكتب ودوره في بيع وشراء الكتب عند المسلمين ، ولأن مهنة الدِلالة على الكتب تعد من المهن المغمورة بين المهن التي شكلت حركة شراء وبيع الكتب كان من الضروري أن يستهل البحث بالوقوف على المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكلمة دلال الكتب بغرض بيانها وتحديدها ، وقد عمل بالدلالة على الكتب أناس كثيرون سواء من العلماء أو من غيرهم ، كما تعرض البحث لبيان دور دلال الكتب كمهنة مهمة انتشرت في أسواق بيع وشراء الكتب ، فضلاً عن توضيح البحث لمدى اهتمام المسلمين عموماً بشراء وجمع الكتب لدرجة جعلتهم يترددون بشغف على هذه الأسواق والحلقات بحثاً عن المؤلفات الموجودة بها وشراء ما يريدون منها ، وكانت هذه الأسواق والحلقات أشبه بالمنتديات الثقافية والفكرية . وكان من الطبيعي أن يعرض البحث لدوافع الأفراد للتردد على هذه الأسواق والحلقات ؛ فثمة اختلاف في ذلك بين العالم أو المؤلف أو طلاب العلم أو الشخص الذي يرغب في شراء وجمع الكتب لتكوين مكتبة خاصة به ، ولأن لكل مهنة قدرات وسمات ينبغي توافرها فيمن يتصدى لها فقد تناول البحث قدرات وسمات وملامح دلال الكتب التي مكنته من أن يُدرك مراد وغاية كل فئة من الفئات التي تتردد على أسواق وحلقات بيع وشراء الكتب ، كما يعرض البحث للأماكن التي عمل بها دلال الكتب ، حيث دأب الدلال على ترقب أماكن تجمع الناس ليعرض بضاعته التي بين يديه سواء في أسواق الكتب أو المناسبات التي يتجمعون فيها ، وربما استأجره أحد الأشخاص لينادى له على كتاب يرغب في الحصول عليه بطريق الشراء ، حتى وإن جلس في داره فثم الكتب والمؤلفات التي يُروجُ لبيعها في الصباح وفى المساء ، كما اهتم البحث بتحديد أدوات دلال الكتب ووسائله التي اعتمد عليها للترويج للكتب والمؤلفات ، ولما كان لدلال الكتب دوره البارز في حركة بيع وشراء الكتب والمؤلفات التي كانت تُعد أهم مصادر التعليم والتَعلم في هذه العصور ، جاء ختام البحث ببيان وتوضيح لدور دلال الكتب في الحياة العملية العلمية والفكرية عند المسلمين .

تمهيـــد :

دلال الكتب هو أحد المشتغلين بتجارة الكتب والمُؤلفات والترويج لها عبر العصور ، وقد تنقل دلال الكتب في شتى أرجاء العالم الإسلامي ، فتواجد في بلاد المشرق والمغرب الإسلامي وبلاد الأندلس ، فأينما وُجدت الكتب وأسواقها ظهر دلال الكتب ليقوم بدوره ومهامه . وكان دلال الكتب كغيره من المشتغلين بالوراقة وتجارة الكتب يرحبون بوفرة المؤلفات في شتى فنون المعرفة ، وقد تميزت الحضارة العربية الإسلامية بفيض هائل في العلوم والمعارف التي ظهرت في شكل كتب ومؤلفات ، مما حدا ببعض العلماء والمؤلفين لإعداد ببليوجرافيات نوعية ترصد وتُسجل هذه الكتب والمؤلفات وتؤرخ لهذا الفكر ، وفى مقدمتها الفهرست لابن النديم ومفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كُبرى زادة وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجى خلفية ..... الخ .

ولأن العلماء المسلمين والمؤلفين طلاب العلم وغيرهم من الفئات الأخرى قد حرصوا على اقتناء الكتب والمؤلفات بُغية القراءة والإطلاع على محتوياتها من ناحية و جمع الكتب لتكوين مكتبات أو خزائن شخصية له من ناحية أخرى ، كانت أسواق الوراقة والوراقين هم مقصدهم وقبلتهم الأولى ، وكان لدلال الكتب الدور البارز في توجيهم إلى أهم الكتب والمؤلفات ، فضلاً عن بيان الكتب المُميزة منها والكتب النادرة التي يصعب توافرها في مكان أو في بلد أخرى .

أولاً : إشكالية الدراسة :

تبدو إشكالية الدراسة في قلة وندرة الدراسات البحثية التي تدور حول هذا الموضوع سواء من قريب أو من بعيد ، فلم يقف الباحث على أية أبحاث أكاديمية عالجت دلال الكتب ودوره في جمع الكتب وشرائها وبيعها ، فهو موضوع جدٌ صعب ، لأن دلال الكتب كانت مهنة مغمورة ، ولم تظهر في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية كظهور المهن الأخرى مثل مهنة الوراقة والوراقين وغيرها ، مما يتحتم ضرورة البحث المُضني للكشف عنها وبيان دورها أهميتها في حركة تداول الكتب عند المسلمين .

ويعد موضوع دلال الكتب من الموضوعات التي لم تتناوله المصادر والمراجع المختلفة بشيء من التوضيح والتفسير ، فعادة ما يتناوله المؤلفون والباحثون كموضوع جانبي أو تكميلي للموضوع الرئيسي أو الأصلي ، ولا يعدو عن كونه فقرة أو فقرات في الكتب ولا يختلف المر عنه في مقالات الدوريات ، مما دعا الباحث إلى السعي بجد في دراسته وكشف النقاب عنه .

ثانياً : أهداف الدراسة :

تسعى الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف يمكن بيانها كالتالي :

1- الوقوف على المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكلمة دلال الكتب .
2- بيان مدى الاهتمام بشراء وجمع الكتب عند المسلمين .
3- تحديد دوافع ودواعي التردد على حلقات بيع الكتب .
4- معرفة ماهية مهنة دلال الكتب .
5- تحديد خصائص وسمات دلال الكتب .
6- بيان الأماكن التي تواجد بها دلال الكتب لأداء مهمته .
7- بيان مواعيد عمل دلال الكتب .
8- تحديد أدوات دلال ووسائل الكتب للترويج لبيع الكتب .
9- بيان دور دلال الكتب في العملية العلمية والفكرية .

ثالثاً : تساؤلات الدراسة :

يمكن بيان التساؤلات التي تُجيب عنها هذه الدراسة في النقاط الآتية :

1- ما المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكلمة دلال الكتب ؟
2- ما مدى الاهتمام بشراء وجمع الكتب عند المسلمين ؟
3- ما دوافع ودواعي التردد على حلقات بيع الكتب ؟
4- ما هي مهنة دلال الكتب ؟ 4-
5- ما خصائص وسمات دلال الكتب ؟
6- 6-ما الأماكن التي تواجد بها دلال الكتب لأداء مهمته ؟
7- ما مواعيد عمل دلال الكتب ؟
8- ما أدوات دلال ووسائل الكتب للترويج لبيع الكتب ؟
9- ما دور دلال الكتب في العملية العلمية والفكرية ؟

رابعاً : أهمية الدراسة :

ترجع أهمية دراسة هذا الموضوع إلى عدة أمور ويمكن بيان أهمها فيما يلي :

1- أهمية الدور الذي لعبه دلال الكتب في الترويج للكتب والمؤلفات ، بالإضافة إلى حرص العلماء والمؤلفين على شراء وجمع الكتب والمؤلفات للقراءة والإطلاع من ناحية ، وتكوين مكتباتهم الخاصة مهما كانت تبِعات ذلك من ناحية أخرى .

2- أن توفير الكتب والمؤلفات يعد أحد الدعائم الأساسية في التواصل الفكري والعلمي بين العلماء والمؤلفين وطلاب العلم عبر العصور .
3- ضرورة الاهتمام بدراسة موضوع دلال الكتب من جوانب شتى ، وبيان دوره في حركة تداول الكتب ، بيعاً وشراءً ، لندرة الدراسات التي تناولته .

خامساً : منهج الدراسة :

تستخدم الدراسة المنهج التاريخي ، حيث اعتمد الباحث على مصادر تاريخية مدونة ومنشورة ، من أجل الحصول على البيانات المطلوبة لإجراء الدراسة .

سادساً : مجال الدراسة وحدودها :

(أ) الحدود الموضوعية :

تهتم الدراسة بموضوع دلال الكتب ودوره في حركة بيع الكتب وشرائها لدى جميع الفئات في المجتمع ، سواء العلماء أو المؤلفين والكُتاب وطلاب العلم أو عامة الناس ، سواء كان شراء الكتب لأجل القراءة أو الاطلاع أو النسخ .... الخ .

(ب) الحدود الزمنية :

تتسع دراسة دلال الكتب ودوره في بناء و تكوين المكتبات الخاصة خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية ، بدايةً من القرن الثاني الهجري على اعتبار أنها تمثل البدايات الأولى للتأليف وانتشار أسواق الوراقة والوراقين وظهور دلالين الكتب ، وذلك حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري ، أي لمدة عشرة قرون من عمر الحضارة العربية الإسلامية باعتبارها فترة زمنية كافية لتحديد كافة جوانب الظاهرة .

(ج) الحدود المكانية :

لا تقتصر دراسة دلال الكتب ودوره في جمع الكتب وشرائها على مكان محدد أو بقعة بعينها في العالم الإسلامي ، بل دراسة كل ما يتعلق بدلال الكتب في شتى ربوع العالم الإسلامي سواء في بلاد المشرق والمغرب الإسلامي و بلاد الأندلس .

سابعاً : الدراسات السابقة :

لم يقف الباحث على دراسة واحدة تناولت موضوع دلال الكتب ودروه في حركة بيع الكتب وشرائها عند المسلمين خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية ، وان كانت ثمة دراسات دارت حول موضوع الوراقة والوراقون وفيها تتعرض لدلال الكتب على استحياء شديد أو تكملة للصورة التي كانت عليها أسواق الوراقة والوراقين الموجودة آنذاك ، إلا أنه توجد دراسة فريدة لأحد الشخصيات البارزة في مهنة دلال الكتب وهى عبارة عن مقالة نُشرت في مجلة معهد المخطوطات العربية (يناير 1989) تحت عنوان " سعد بن على الحظيرى الملقب بـــ " دَلال الكتب " للدكتور ناظم رشيد [1]

وعرض فيها شخصية أبى المعالي الحظيرى المتوفى سنة 567هـ وسيرته منذ ولادته ونشأته ورحلاته المختلفة ومؤلفاته وذكر شيئاً من أشعاره ونثره وكان معظم ما نقله الدكتور ناظم رشيد من أشعار ونثر لأبى المعالي الحظيرى " دلال الكتب " مما ورد في كتاب " خريدة القصر وجريدة العصر " لعماد الدين الأصبهانى وقد صرح بذلك ، ولم يتعرض كاتب المقال لأي شيء من الجوانب العديدة لمهنة دلال الكتب ودروها في حركة تداول الكتب والمؤلفات عند المسلمين ، والتي سنعرض لها في هذه الدراسة ، حيث سعى الباحث بجد لأن تكون هذه الدراسة لبنةً تسد فراغاً في مجال التخصص .

ثامناً : مصطلحات الدراسة :

ثمة مجموعة متنوعة من المصطلحات التي تتطلب طبيعة الدراسة تحديد معناها وتفسيرها ، وقد رأى الباحث ضرورة إبرازها على النحو التالي :

1- جمع الكتب Book collecting:

هي عملية جمع وشراء الكتب في الموضوعات المختلفة سواء كانت هذه الموضوعات تاريخية أو وقائع أو أحداث أو موضوعات علمية أو المؤلفات الشخصية أو المخطوطات النادرة .... الخ ، وهى عملية دائمة ومستمرة للاهتمام بجمع الكتب .(2)

2- جامع الكتب Book collector:

يمكن تعريف جامع الكتب من خلال التعريف السابق لجمع الكتب ، على أنه : الشخص الذي يهتم بجمع الكتب والمؤلفات ، فيشترى الكتب سواء في مجال تخصصه أو غيره طالما أن الكتاب دخل دائرة اهتمامه .

3- محب الكتب bibliophile:

هو الشخص الذي يحب الكتب ، ولديه القدرة على المعرفة والتمييز بين الكتب سواء كانت جيدة أو رديئة ، وقد يُطلق عليه أيضا " جامع الكتب ".(3)

4- جنون الكتب Bibliomania:

هي حالة من الولع الشديد الذي يصل بصاحبه إلى حد الهوس والجنون بالكتب وحب تملكها مهما كلفه ذلك الهوس في سبيل الحصول عليها واقتنائها .(4)

5- مجنون الكتب (Bibliomane) Bibliomaniac:

هو الشخص الذي يعانى من عدم القدرة على التمييز بين الكتب سواء المفيد منها وغير المفيد فلا يتقيد بشراء كتب بعينها إنما يدفعه الهوس والجنون إلى جمع وشراء الكتب بغض النظر عن تبعات ذلك كأن يبيع داره أو شيئاً من أثاث بيته .(5)

6- مكتبة (خزانة) شخصية Private library:

وتعنى " مكتبة خاصة " يمتلكها الفرد ، وتطلق كذلك على المكتبة التي تملكها جمعية أو نادي والتي لا يستخدمها إلا الأعضاء ، ولا تموّل بأموال خاصة " .(6)

وثمة تعريف ثان لا يختلف كثيراً عن التعريف السابق ، حيث يشير إلى أن المكتبة الشخصية هي : " واحدة من الممتلكات الشخصية لفرد ما في المجتمع ، ويُقصد بها أيضا أي مكتبة ملك لجمعية ما أو لنادي معين أو مؤسسة ، تلك التي تتيح لأعضائها فقط حرية الوصول إلى مقتنياتها والاستفادة منها ، ولا تتيح خدماتها لعامة الشعب ".(7)

ولأن كلا التعريفين السابقين لا يُغطيان موضوع الدراسة بشكل دقيق ، وجد الباحث أن التعريف المناسب والأقرب لطبيعة البحث هو ما ذكره الدكتور شعبان خليفة حيث ينص على أن " المكتبات الشخصية هي تلك المكتبات التي ينشئها الأفراد من ذوى الحيثيات في مكاتبهم أو منازلهم طبقاً لميولهم واتجاهاتهم الشخصية .... وأن انتشار هذه المكتبات يكشف عن مدى الوعي بأهمية الكتب في حياة الأفراد"(8)، ومن المؤكد أن هذه المكتبات الشخصية كانت مساراً للفخر والتباهي بين المسلمين عموماً ولم يكن تكوينها قصراً على فئة دون غيرها سواء من ذوى الحيثيات أو حتى عامة الناس .

7- الوراقة والوراقون :

الوراقة : هي حرفة تتعلق بمختلف أمور الكتب سواء " الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتابية ، والدواوين "(9) أما مصطلح الوراق بفتح الواو وتشديد الراء وفي آخرها القاف ، هذا اسم لمن يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها ، وقد يقال لمن يبيع الورق - وهو الكاغد - ببغداد : الوراق أيضا "(10)

ويمكن القول أن مهنة الوراقة تتضمن المهام الآتية :

1- نسخ وتدوين الكتب .
2- تجليد الكتب .
3- تجارة الكتب .
4- بيع مستلزمات النسخ والتدوين من أوراق وأقلام ، والأحبار ... الخ .

مقدمـــــة :

حظيت الوراقة والوراقين باهتمام كبير من جانب الباحثين وتم دراستها من جوانب عدة سواء ما يتعلق بمهنة الوراقة أو الوراقين أو المواد المستعملة فيها من أوراق وأقلام وأحبار وغيرها إلا أن مهنة مهمة كانت ذات دور بارز في أسواق الوراقة بشكل عام والكتب والمؤلفات بشكل خاص ، وهى دلال الكتب والتي لم تحظ بقدر كاف من الاهتمام بالرغم من دوره البارز في الحصول على المؤلفات سواء العادية أو القيمة والنادرة ، فقد كان حلقة الوصل بين تُجار الكتب والعلماء والمؤلفين وكافة الفئات الموجودة في المجتمع الكائن آنذاك .

إن الكتاب هو آلة العلم والأداة الرئيسية لتحصيله ، ولذلك أقبل العرب والمسلمون أيما إقبال على جمع الكتب سواء بطريقة الشراء أو غيرها ، وتكوين المكتبات الشخصية يدفعهم في ذلك حب خالص للكتب وتقدير لمكانتها[11] ودورها في تكوينهم العلمي والثقافي والفكري ، فضلاً عن أنها كانت من دواعي فخرهم واعتزازهم أمام الآخرين ، ولأجل ذلك أقبل بعض الأفراد من غير القراء على جمع الكتب والمؤلفات وشرائها من أسواق الوراقة و دكاكين الوراقين .

حرص كثير من الأفراد بغض النظر عن مستوياتهم العلمية والثقافية والاجتماعية على تكوين المكتبات الشخصية يستفيد منها ويُفيد الآخرين ، ويمكن القول أنها كانت واسعة الانتشار في أرجاء العالم الإسلامي ، وفى الواقع أنه كان من العسير أن نجد عالماً أو أديباً أو مُفكراً أو رجلاً يشتغل بالتأليف والإبداع والتحقيق دون أن يكون له مكتبة خاصة به - وربما ضحى بالغالي والنفيس من أجلها- يرجع إليها في دراساته وكتاباته "[12] وليس من شك في أن تكوين المكتبات الشخصية كان عن طريق شراء الكتب أو بنسخ أصول الكتب أو مُنحت لهم من خلال الهبة أو عن طريق الوراثة .

أولاً : المفهوم اللغوي والاصطلاحي لـ " دلال الكتب " :

خلت القواميس والمعاجم اللغوية العامة والمتخصصة من التعريف الكامل لـــ " دلال الكتب " ، حيث ركزت كلها على كلمة " دلال " وتناولتها تحت الفعل " دلل " وفى مقدمتهم " لسان العرب " لابن منظور حيث ذكر أن " الدلال : الذي يجمع بين البيعين ، والاسم الدلالة والدلالة ، والدلالة : ما جعلته للدليل أو الدلال . وقال ابن دريد : الدلالة ، بالفتح ، حرفة الدلال . ودليل بين الدلالة ، بالكسر لا غير .[13] بينما ركز الجوهري في تاج اللغة وصحاح العربية على أن كلمة " الدليل : ما يُستدل به . والدليل : الدال ، وقد دله على الطريق ، يدله دلالة ودِلالة ودُلْدلة ، والفتح أعلى .[14] أما القاموس المحيط فلم يطل في تعريف اللفظ فحسب بل إنه قَصرَ في تناوله فأورد أن " دله عليه دلالة ، ويُثلث (يعنى دلَلَ) ودُلولة ، فاندل : سدده إليه "[15] وبالرغم من ذلك الاقتصار في التعريف فإن المُعجم الوسيط قد توسع شيئاً ما في تعريف اللفظ ، وذلك لحداثته وتناوله لبعض الألفاظ والمصطلحات بطريقة أكثر توسعاً ، فيذكر أن " دل عليه ، وإليه دلالة : أرشد ، ويُقال : دله على الطريق ونحوه : سدده إليه . فهو دال . والمفعول : مدلول عليه وإليه ... ودلَّهُ على السلعة : أعلن عن بيعها بالمساومة . الدلالة : الإرشاد وما يقتضيه اللفظ عند إطلاقه ، والدلالة : الدلالة ، والدلالة اسم لعمل الدَلال ، والدلالُ : من يجمع بين البيعين . والدلال من يُنادى على السلعة لتُباع بالممارسة "[16]

ومن خلال التعريفات السابقة يتبن لنا أن الدلال هو الشخص الذي يمارس عمله في الجمع بين البائع والمشترى ، وكما كان هناك دلالون آخرون مثل : دلال الرقيق ودلال الأملاك ... الخ كان هناك ما

يُسمى دلال الكتب [17] تخصص هذا الدلال - كما هو واضح - في مجال الكتب بحيث يُدلل على الكتب لبيعها .

ويمكن الخروج بتعريف مُحدد لدلال الكتب ، وهو الشخص الذي يعمل كوسيط بين بائعي الكتب ومن يريد شرائها ، سواء كان البائع تاجراً للكتب أو شخصاً عادياً ، والمُشترى كذلك ، وفى سبيل هذا يقوم بدور الإرشاد إلى الكتب المراد بيعها ويُنادى عليها في الأسواق أو في أي مكان آخر حتى يتم بيعها .

ثانياً : شراء وجمع الكتب عند المسلمين :

اهتم علماء المسلمين بالكتاب ، وكتبوا فيه من النثر ونظَموا فيه أبيات الشعر ما يدل على حبهم وشغفهم به ، فقد نعته الجاحظ قائلاً " الكتاب نعم الذخر والعُقدة هو ، ونعم الجليس والعُدة ... والكتاب وعاء مليء علماً ، وظرف حشي ظرفا ، وإناء شُحن مزاحا وجدا ، ولا أعلم جاراً أبر ولا رفيقاً أطوع ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ...." [18] كان الكتاب رفيقاً لهم في أوطانهم وفى أسفارهم ، في البر والبحر ، يقرأون الكتب ليلاً ونهاراً ، وكان لهم شغف عجيب بالكتب قد يصل أحياناً من جانب البعض إلى جنون أو هوس بالكتب في شتى العلوم والفنون .

حض علماء المسلمين طلاب العلم على شراء الكتب ما أمكنهم ذلك ، وجعلوا شراء الكتب في المقام الأول لتحصيل العلوم والمعارف ، فلا يشتغلوا بنسخها أو إعارتها أو إجارتها لئلا يضيعوا أوقاتهم فيفوتهم منافع العلم [19] ولم يقتصر الأمر على طلاب العلم بل حرص الجميع على شراء الكتب ولم يكن ثمة فرق بين الأغنياء والفقراء ، سواء الحكام أو الوزراء أو عامة الناس ، فكان المأمون ينام والدفاتر حول فراشه ينظر فيها متى انتبه من نومه وقبل أن ينام . ودأب المرء في المجتمع آنذاك على شراء كتب ليس بحاجة إليها في وقته ، لكنه حينما يُسأل عن ذلك يكون جوابه : إن لم أحتاجها اليوم احتجت إليها بعد اليوم ، أو ربما احتجت إلي ما لا احتاج إليه أو اشتريت ما ليس بعلمي ليصير من علمي .[20]

وليس ثمة فرق في حب شراء الكتب وجمعها بين الأفراد في بلاد المشرق الإسلامي وبلاد المغرب والأندلس حتى أن الفرد منهم الذي لا تكون عنده معرفة ولا علم يحتفل بأن يشترى الكتب ويجمعها ، لا لكي ينتفع بما فيها من علوم ومعارف ولكن ليُقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفُلاني ليس هو عند أحد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به[21] وقد بلغ حبهم لشراء الكتب وجمعها أن ابن الخشاب عبد الله بن أحمد المتوفى سنة 567هـ اشترى يوما كتبا بخمسمائة دينار ، ولم يكن عنده شيء منها ، فاستمهلهم ثلاثة أيام ، ثم مضى ونادي على داره ، فباعها بخمسمائة دينار ، وأعطى صاحب الكتب ثمنها نقداً [22] وان لم يتيسر للفرد شراء الكتب نقداً ، فلم يكن أمامه سوى أن يستدين ويقترض حتى يتيسر حاله فيتمكن من سداد دينه ، فأحد القضاة كان يشترى الكتب بالدين والقرض ، فقيل له في ذلك ، فقال أفلا أشترى شيئاً بلغ بى هذا المبلغ ؟ قيل : فانك تكثر ؛ فقال : على قدر الصناعة تكون الآلة .[23]

إن جمع الكتب أمر صعب لما يتطلبه ذلك من بذل المال والجهد والأصعب منه فقد الكتب أو بيعها أو حتى بيع بعضها لأي سبب كان ، فقد يفقد المرء منهم كتبه فيئن لذلك ويحزن أشد من حزنه على فقد أهله وولده كما كانت لمالك بن أنس صناديق من الكتب فذهبت وفُقدت ، فقال الإمام مالك " لو بقيت لكانت أحب إلى من أهلي ومالي .[24] فقد كانت الكتب تمثل لهم روح الحياة إذا جمعها اطمأن وإذا فقدها عز عليه وأسف عليها كثيرا ، وعبر بعضهم عن ذلك قائلاً " علةُ أَحَزنت وفلتة ساءت ، هي بيع بعض الكتب التي تَعبتُ في جمعها وتحصيلها وجعلت تصحيحها نتيجة العُمر ".[25]

من المؤكد أنه نمو وزيادة أعداد الكتب والمصنفات بسبب ازدهار الحركة الفكرية والعلمية وكثُر العلماء والمؤلفين واهتم عامة الناس بجمع الكتب ، وان كان للمسلمين شغف كبير بشراء وجمع الكتب ، سواء من كان يملك نفقاتها أو لم تسعفه إمكاناته المادية لتلبيه حاجاته ، فإنهم أقبلوا على شرائها وجمعها باعتبارها مصدراً من مصادر فخرهم ، وكان مقياس الثراء عندهم هو شراء وجمع الكتب واقتنائها ،

خصوصاً النادر منها[26] ولم يكن ذلك بمعزل عن عمل دلال الكتب الذي إن لم يتمكن من توفير احتياجاتهم من الكتب والمخطوطات وجعلها متاحة بين أيديهم فإنه كان يسعى على الأقل لإرشادهم إلى أماكن توافرها .

ثالثاً : مهنة دلال الكتب :

ومن الطبيعي أن يكون لدلال الكتب دوره في حركة تداول الكتب من بيع وشراء ، سواء كان هذا الدلال مشهوراً بالدلالة على الكتب ومعروفاً أو كان يُدلل على الكتب من خلال عمله بمهنة الوراقة ، فقد كان من بين مهام عمل الوراقين هو بيع الكتب ، وهذا يتطلب الدعاية والإعلان عن الكتب ذاتها . ومنهم من اهتم ببيع الكتب والدعاية والإعلان عنها والدلالة عليها ، ومنهم من كان يستعمل من اشتهر من دلالين الكتب فعهد إليه بتلك المهمة لترويج وبيع ما لديه من كتب ومخطوطات خصوصاً النادر منها ، ويعد الحظيري أبو المعالي سعد بن علي بن قاسم الأنصاري الوراق الشاعر المعروف بدلال الكتب المتوفى سنة 586هـ ، أشهر دلال للكتب عرفته الحضارة العربية الإسلامية ، وكانت لديه معارف كثيرة ، وله نَظم جيد وصنف كثير من الكتب من أشهرها :[27] كتاب : لمح الملح [*] بالإضافة إلى كتاب زينة الدهر وعصرة أهل العصر ، حيث ذكر فيه ألطافاً من الشعر ، وذكر فيه جماعة كبيرة من أهل عصره ومن تقدمهم ، مما يدل على كثرة اطلاعه واستفادته من مهنته في تأليف الكتب .

وينبغي أن ندرك أن ثمة عدة مسميات أخرى أُطلقت على دلال الكتب منها : المُنادى ، إذ أن المناداة على الكتب من صميم عمل دلال الكتب ، كما كان دلال الكتب يجمع بين الوراقة والدلالة على الكُتب ، سواء بطريق النسخ أو البيع أو التجارة والدلالة عليها ، ومع مرور الزمن أطلق على من يقوم بهذه المهنة مصطلح " سمسار الكتب " ، ومن أشهرهم أبو الفتوح ناصر بن أبى الحسن بن على بن خلف المعروف بابن صورة " سمسار الكتب " المتوفى 607هـ [28] ، فضلاً عن مصطلح الكُتبى الذي أطلق على الوراق ومن يتعامل في تجارة الكتب في العصور المتأخرة ومن أشهرهم هؤلاء الكُتبيين " جمال الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالوطواط الكُتبى الوراق المتوفى سنة 718هـ [29] ، وكان بعضهم يعمل في الدلالة على الكتب لبيعها لنفسه أو لأشخاص آخرين لتحيق أفضل ثمن ممكن لها . فالكُتبى كما ورد في خريدة القصر للعماد الأصبهانى " يعرف الكتب وما فيها ، والمصنفات ومصنفيها ، والمؤلفات ومؤلفيها "[30]

وخلاصة القول أن تجارة الكتب قد مارسها جملة من الناس منهم : العالم والوراق والناسخ والمجلد وغير هؤلاء وقد أطلق على بعضهم العديد من المصطلحات ، مثل : التاجر ، المتسبب ، المتكسب ، السمسار ، المنادي ، الدلال ، الوراق ، الكتبي ، إلى غير ذلك من المصطلحات الدالة على تجارة الكتب "[31]

رابعاً: خصائص وسمات دلال الكتب :

لم يعثر الباحث على وثيقة أو مصدر يحدد الخصائص والسمات العامة لدلال الكتب ، ومن ثم آثر الباحث أن يتخير أحد الشخصيات المشهورة فى مهنة الدلالة ،وهو سعد بن علي بن القاسم بن علي بن القاسم بن الأنصاري الخزرجى أبو المعالي الحظيري المتوفى سنة 586هـ لمكانته في سوق الكتب ، فهو أشهر من عُرف ولُقب بـــ " دلال الكتب "[32] ، باعتباره نموذجاً لبيان الخصائص والسمات التي كان عليها دلال الكتب بوجه عام ، حيث يمكن رسم صورة عن خصائص وسمات دلال الكتب على النحو التالي :

(33)(34)

1- الثقافة الواسعة حيث أن من عمل كدلال للكتب كان له اشتغال بالعلوم و فنون الثقافة المختلفة من شعر وأدب كما كانت لهم مؤلفات وكتب ، ساعده في ذلك علاقته المستمرة والدائمة بأسواق الوراقة والوراقين وحلقات بيع الكتب .... الخ .

2- الرحلة من بلد إلى بلد ، والتنقل من مكان إلى آخر داخل البلدة الواحدة في سبيل الدلالة على الكتب والمؤلفات .
3- حُسن المُعاملة سواء مع من جاء يبيع كتاباً أومن يشتريه باعتبار أن مهنة دلال الكتب أحد المهن المرتبطة بالتجارة أساساً .
4- مخالطة العلماء والمؤلفين والأدباء والشعراء وطلاب العلم والحكام والوزراء وأصحاب الفئات الأخرى المهتمين بجمع الكتب وتكوين مكتبات شخصية لهم خصوصاً البارزين في عصره . بحكم مهنته من ناحية ، فضلاً عن اهتماماته بالعلوم والمعارف من ناحية أخرى .
5- القدرة على تقدير أثمان الكتب والمؤلفات ، وفقاً للاعتبارات المختلفة ، خصوصاً النوادر منها .

خامساً : أماكن تواجد دلال الكتب :

كان هناك اهتمام كبير بالتوسع في أسواق الوراقة ليكون في كل ربض سوق جامعة تجمع التجار من كل الطوائف ، وكان من أشهر مناطق تواجد الوراقين هو " طاق الحرانى " في أحد ضواحي بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية خلال القرن الثالث الهجري [35] وسرعان ما كانت الكتب تأخذ طريقها إلى شتى ربوع العالم الإسلامي وعلى فكانت الكتب تُحمل من بغداد إلى أقصى البلاد ونشطت حركة تجارة الكتب في كل المدن الإسلامية ، وكان الوراقون عادة ما يفتحون دكاكينهم أمام الجوامع والمدارس ، وكانت هذه الدكاكين كثيراً ما تتمركز في شوارع بعينها حيث تكون حركة المارة على أشدها ، وقد كان الدور المهم لهذه الدكاكين ، بالإضافة إلى بيع الكتب ، يكمن في نشر المعلومات حول المؤلفات الجديدة بغرض الترويج لها .[36]

ويبدو أن هذه الأسواق لم يقتصر العمل بها على الوراقين وبائعي الكتب وإنما كانت هناك فئة أخرى أسهمت في توصيل الكتب إلى المستفيدين وكان المنتمين لهذه الفئة يسمون دلال الكتب وكانت مهمتهم هي الجمع بين بائعي الكتب والمشترين وذلك عن طريق النداء .[37] وكان يقوم على بيع الكتب عن طريق الإذاعة والإظهار والنداء عليها في محل الرغبات ومظان الطلبات.[38]

وكان لدلالين الكتب مكانهم بين حوانيت ودكاكين الوراقين ، فهي الأماكن الأساسية لتواجدهم حيث تكثر الكتب والمخطوطات العادية وذات القيمة العالية والنوادر منها ، وكان أبو المعالي الحظيرى الوراق المعروف بـ دلال الكتب لديه " دكان للوراقة ونسخ الكتب والمؤلفات إلى جانب قيامه بالدلالة على الكتب والدفاتر ، كما كان دكانه ملتقى للعلماء والأدباء ، فقد ذكر العماد الأصفهاني أنه لقي الأديب أبو الفرج محمد بن الحسين بن خليل الهيثى بباب دكان أبى المعالي الكتبى في سنة خمسين وخمس مائة "[39] ، ويُذكر أنه خرج من بغداد ثم رجع إليها وعاد إلى ما كان عليه من بيع وتجارة الكتب والدلالة عليها في دكانه بالإضافة إلى التصنيف والتأليف إلى أن أدركته منيته فمات على هيئته "[40]

لم يقتصر أمر الدلالة على الكتب وعرضها والترويج لها على الحوانيت والدكاكين في أسواق الوراقة والوراقين ، فمنهم من كان يمارس مهنة الدلالة على الكتب وبيعها من بيته أو داره مثل : ناصر بن علي بن خلف المعروف بابن صورة الكُتبى المتوفى سنة 607 هـ وقد عَرف عنه انه كان يعمل سمساراً للكتب بمصر وله في ذلك خبرة كبيرة ، وكان يجلس في دهليز داره لذلك ، ويجتمع الناس عنده ، فيعرض عليهم الكتب المراد بيعها .[41]

ولأن مهمة دلال الكتب بيع النادر من الكتب وشراءها ، فكان يجوب المدن ويتردد على كل تاجر للبحث عن النادر منها وللإطلاع على آخر ما أنتجه العلماء والمؤلفين العرب والمسلمين من مؤلفات في شتى العلوم والفنون ، وقد تُكلل جهوده ورحلاته بين البلاد بالنجاح مرة ، مثلما نجح أحد الدلالين في رحلته لشراء كتب أبى حاتم سهل بن محمد من ورثته ، حيث وقف أهل البصرة على المزايدة فيها ، حتى بلغت بأربعة عشر ألف دينار ، فتمكن من شرائها ليعقوب بن الليث بن الصفار المتوفى 265هـ ، كما طلب منه وأرسله لهذه المهمة ، ونُقلت إليه كلها .[42] وقد لا يُوفق في رحلته من أجل الحصول على

الكتب والمؤلفات ، فقد سافر أحد هؤلاء الدلالين من بغداد إلى القاهرة ليشترى ما يقع تحت يديه من الكتب القيمة والنادرة ، وكان قد سمع بأخبار أحد الأطباء المشهورين آنذاك وهو إبراهيم بن الصوفان والذي كانت لديه مكتبة زاخرة بالكتب والمؤلفات النادرة تمكن دلال الكتب من توطيد العلاقة معه وتمكن من إقناع الطبيب بشراء عشرة آلاف مجلد من كتبه ، فوافق الطبيب ، ولكن الوزير الأفضل أقنعه بعدم بيع كتبه .[43]

وقد يذهب دلال الكتب إلى بيوت العلماء وديارهم بناءاً على طلبهم ، ليقدر قيمة الكتب مادياً ، سواء كانت أعداد الكتب كبيرة أو قليلة ، وقد يتفاوت تقدير ثمنها من دلال إلى آخر ، فقد دُفعت كتب أحمد بن يحي ثعلب المتوفى سنة 291هـ إلى أبى بكر ابن اسحق فقال إبراهيم الزجاج للقاسم بن عبد الله " هذه كتب جليلة ، فتقدم القاسم إلى على بن عبيد الله بن رأس البغل حتى يقدر ثمنها ويأخذها لكنه قومها بثمن باهظ ، فما كان من إبراهيم الزجاج إلا أن أحضر خيران الوراق فقوم ما كان يساوى عشرة دنانير بثلاثة دنانير فقط ، فبلغت أقل من ثلاثمائة دينار فأخذها القاسم بها ".[44]

ولم يقتصر عمل دلال الكتب على حوانيت ودكاكين الوراقين ، بل كانت هناك حلقات الكتب يأتي إليها من يريد بيع كتبه أو من يبغى الشراء ، وينادى دلال الكتب على كتب بعينها للإعلان عنها والترويج لها ، حتى يصل إلى أعلى ثمن لبيعه ، ومن الطبيعي في حلقات الكتب أن بعض العلماء والأفراد العاديين إذا أراد شراء كتب بعينه للإفادة منه فإنه يستمر في المبالغة في ثمنه لدلال الكتب حتى يشتريه ، مثلما غالى الجاحظ في شراء كتاب سيبويه حينما قدم إلى بغداد " ونودي عليه ، فبالغت في ثمنه فتم له شراء الكتاب .[45]

وكان دلال الكتب يعرف الجيد والرديء من الكتب ؛ كما يبيعونها ويقوّمونها . لهذا كان جامعو الكتب يراجعونهم في اقتناء الكتب ، وهم يجلبون لهم ما أرادوا ، ولو كان من بلاد بعيدة ، وكان دلالي الكتب أحياناً يتبعون طرقاً مختلفة ليحصلوا على الكتب بأثمان قليلة فقد شهدت حلقات بيع الكتب وأسواق الوراقة أشكال متعددة للتدليس من جانب بعض الوراقين بغرض بيع الكتب بأسعار أعلى فكانوا ينسبون بعض الكتب إلى العلماء البارزين آنذاك ، ومن ذلك كتاب " الأغاني الكبير " المنسوب إلى اسحق بن إبراهيم الموصلي " الذي لم يصنفه أصلاً ولم يدرى انه نُسب إليه .[46]

ينبغي أن ندرك أن مسالة التدليس في الكتب لم تكن من جانب الوراقين فقط بل كانت من جانب النُساخ أيضاً ، إذ أن بعضهم كان يزيد في حجم الكتاب ليروج له ولكي يُزيد من قيمته المادية كما كان أحمد السري أبا الحسن الكندي المعروف بالسُرى الرفاء المتوفى 362 هـ قد نسخ " ديوان شعر كشاجم " وكان مُغرى ومُولع به ، لكنه كان يدس فيه من أشعار الخالدين ليزيد من حجم ما ينسخه وينفق سوقه فيبيعه بأكثر من ثمنه .[47] بل إن بعض المترددين على حلقات بيع الكتب وأسواق الوراقة عموماً كانوا يعبثون في الكتب ليشتروها بأقل من ثمنها ، فقد كان بعضهم إذا أراد شراء كتاب بعينه غافل الناس وقطع منه ورقة أو أكثر ، أو أحدث فيه ما يُقلل من قيمته ليأخذه بثمن بخس ومن أبرز من عُرف عنه ذلك عبد الله بن أحمد بن الخشاب المتوفى 567 هـ " .[48] ، وربما حمله على ذلك حبه للكتب مع ضيق ذات اليد ، وقد مر بنا انه باع داره من شراء الكتب ، حتى ذُكر أنه " كان لا يخلو كمه من كتب العلم ".[49]

سادساً : دوافع ودواعي التردد على حلقات بيع الكتب :

كان بعض المترددين على أسواق الوراقة يأتون إلى حلقات بيع الكتب ، فيجلسون في شكل حلقة ، ويُعلن عن الكتاب بالنداء عليه ، فيزايد الناس عليه واحداً بعد الآخر ، كما هو الحال في المزاد العلني ، وكان هناك دلالون للكتب لديهم الخبرة في مجال بيع الكتب وعرضها والإعلان عنها ، مع بيان خصائصها ومميزاتها مما يساعد في إقبال الناس عليها بالشراء [50] وقد انتشرت حلقات الكتب في مختلف بلدان العالم الإسلامي ، وشهدت حركة بيع الكتب رواجاً كبيراً ، وكان لتردد الأفراد على حلقات بيع الكتب دوافع

عديدة ومتنوعة ، لعب دلال الكتب دوراً كبيراً في تلبيتها وفقاً لغاية كل منهم ، ويمكن بيان هذه الدوافع والأغراض على النحو التالي :

1- الاقتناء الشخصي للكتب :

جرت العادة أن يذهب العلماء والمؤلفين وعامة الناس إلى حلقات الكتب في أسواق الوراقين بغرض شراء الكتب والمؤلفات ولتكوين خزائن ومكتبات شخصية لهم ، وقد يجد في مزادات الكتب ما يلبى اهتمامه فيشترى ما يريد منها ، مثلما كان أبو الفرج الأصبهاني يدخل سوق الوراقين وهى عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته "(51) فيطالعها ويستفيد منها كبقية مؤلفاته التي جمعها ، شأنه في ذلك شأن غالبية العلماء والمؤلفين والأفراد العاديين الذين كونوا مكتبات شخصية زخرت بكثير من المؤلفات والمخطوطات بطريق الشراء .

وليس من الضروري أن كل من يأتي إلى أسواق الوراقة أو مزادات الكتب جاء ليشترى أفضل الكتب وأجودها ، فهناك من كانت إمكاناته المادية تسمح له بشراء ما يريده كما مر بنا بل إن من الأفراد لم تمكنه من شراء الكتب إلا الرديء منها ، مثل عبد الله بن احمد بن الخشاب المتوفى سنة 567هـ الذي كان من محبي وجامعي الكتب وكان كثير التردد على أسواق الوراقين لكنه " لا يقتنى من الكتب إلا أرداها صورة و أرخصها ثمناً "(52)

2- إهداء الكتب للأصدقاء :

ليس من الضروري أن يأتي العالم أو حتى الشخص العادي إلى حلقات بيع الكتب في أسواق الوراقة ليشترى كتاباً لنفسه فقط ، فمن الممكن أن يذهب لمزاد الكتب لشراء كتاب يهديه لأحد أصدقائه أو أي شخص يذهب إليه ، فقد كان من عادتهم - في ظل الحضارة العربية الإسلامية - أن يتهادوا بالكتب والمؤلفات لإظهار الاهتمام والتقدير ، مثلما فعل أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة 255هـ حين قدم على بغداد ولم يكن معه شيء يُهديه إلى محمد بن عبد الملك الزيات المتوفى سنة 233هـ فلما خرج من السفينة سمع منادياً ينادى : من أراد أن يحضر بيع كتب الفراء فليحضر ، فقال لأذهبن لعلى أن أشترى كتاباً فأهديه إليه ، فحضر فلم يجد كتاباً يستحسنه سوى " كتاب سيبويه " فاشتراه وأهداه إليه فسُر به محمد بن عبد الملك الزيات .(53)

3- الفخر بالكتب والتباهي بها :

كان العرب والمسلمون في بلاد المشرق وبلاد المغرب الإسلامي والأندلس يفتخرون بحصولهم على الكتب والمؤلفات ، فقد كان وجود الكتب في البيت من بواعث الفخر بين جيرانه وأقرانه ، ومن اللافت للنظر أن البعض كان يأتي إلى حلقات بيع الكتب ليشترى المؤلفات سواء انتفع بها أم لم ينتفع ، ولعل على بن إبراهيم بن سعيد الحوفى المصري المتوفى سنة 430هـ قد صنف كتاب " إعراب القرآن " في عشر مجلدات أبدع فيه وتنافس العلماء على تحصيله ، فاشتراها رجل من عامة الناس ، ثم رحل بها إلى الشام وهو غير عالم بقدرها ولا عارف بمُصَنِفها ، ولما تنبه على جلالتها تنبه لها واشتد حفظه لها وضنه بها .(54)(55)

وقد يأتي أحد الأفراد إلى حلقات بيع الكتب فتقع عينه على كتاب لمجرد مظهره الخارجي فقط دون أي اعتبارات أخرى فيُغالى في شرائه ويُضَيعُ الفرصة على من هو أعلم منه وأكثر حاجة له ، فعبيد الله بن عمر الحضرمي أقام بسوق قرطبة يترقب كتبها حتى عُرض أمامه كتاب طال اهتمامه وطلبه له ، وكان بخط جيد ففرح به أشد الفرح وجعل يزيد في ثمنه وهناك من يُزيد في ثمنه أمام المنادي إلى أن بلغ فوق حده ، فطلب من المنادى أن يريه من يزيد في ثمن الكتاب ، فقال له إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت بالكتاب زيادة فوق حده ، فكان رده : لست بفقيه ولا أدري ما فيه ، ولكني أقمت

خزانة كتب لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب . فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد ، استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير .(56)

4- الإطلاع على الكتب :

كان البعض يذهب إلى حلقات بيع الكتب بغرض الإطلاع فقط والتعرف على محتويات الكتب إما للانتفاع بالمعلومات التي تشتمل عليها أو لنسخ وتدوين أجزاء منها ، مثل محمد بن بهادر بدر الدين محمد الزركشى المتوفى سنة 794هـ الذي لم يكن يتردد على الأشخاص أو الأماكن إلا إلى سوق الكتب ، وإذا حضره لا يشترى شيئاً من الكتب إذ أن شغله الشاغل فيها هو مطالعة الكتب والمؤلفات ، لينتقى ما ينفعه من المعارف والمعلومات ، ثم يدونها في صحفه و أوراقه تمهيداً لنقلها إلى مُؤلفاته .(57)

سابعاً : مواعيد عمل دلال الكتب :

ارتبطت مواعيد عمل دلال الكتب إلى حد كبير بمواعيد أسواق الوراقة ودكاكين وحوانيت الوراقين بالرغم من انه لم يربط نفسه بها في كل الأحوال ، فكان يعمل في أي وقت سواء نهاراً أو ليلاً طالما دعت الضرورة لذلك ، وإن كانت هذه الأسواق دائمة العمل باستمرار في جميع الأيام لا يمنعها سوى حدوث النوازل كالكوارث والحروب وغيرها .

وكان دلال الكتب يتحين فرصة تجمع الناس في المناسبات المختلفة ليؤدى مهامه ، ويبدو أن مواسم الحج كانت مناسبة جيدة لتداول الكتب والبحث عنها أو الإرشاد والدلالة عليها ، فقد ذُكر أن أبو حيان التوحيدي قال : حدثنا على بن عيسى النحوي الشيخ الصالح قال : سمعت ابن الاخشاد شيخنا أبا بكر يقول : ذكر أبو عثمان في أول كتاب "الحيوان" أسماء كتبه ليكون كالفهرست ومر بى في جملتها " الفرق بين النبي والمتنبئ " و " كتاب دلائل النبوة "... فأحببت أن أرى الكتابين ، ولم أقدر إلا على واحد منهما وهو كتاب " دلائل النبوة ". فهمّني ذلك وساءني في سوء ظفري به ، فلما انتقلت من مصر ودخلت مكة حاجّاً ، أقمت منادياً بعرفات ينادي ، والناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم وأوطانهم وتباين قبائلهم وأجناسهم من الشرق إلى الغرب رحم الله مَنْ دلّنا على كتاب " الفرق بين النبي والمتنبي" لأبي عثمان الجاحظ على أي وجه كان . قال: فطاف المنادي في ترابيع عرفات ينادى على الكتاب لكنه عاد بالخيبة .(58)

وكان بعض دلالي الكتب يحرصون على التركيز في أيام بعينها لبيع الكتب وعرضها على العلماء وطلاب العلم ، باعتبارها فرصة أكثر مناسبة لقيامه بمهامه ، بالرغم من النهوض بعمله في جميع الأيام الأخرى ، ومن ذلك ناصر بن على بن خلف المعروف بابن صورة الكُتبى المتوفى سنة 607 هـ الذي عُرف عنه أنه كان يعمل سمساراً للكتب بمصر وله في ذلك خبرة كبيرة ، وكان يجلس في دهليز داره لذلك ، ويجتمع الناس عنده يومي الأحد والأربعاء من أعيان الرئاسة والفضلاء ، فيعرض عليهم الكتب المراد بيعها .(59)

وبوجه عام يمكن القول أن دلال الكتب كان يستغل تواجد أكبر عدد ممكن من الناس للدلالة على الكتب ، وأن الدلالة على الكتب لم تكن لتتوقف على أماكن بعينها كأسواق الوراقة وحلقات بيع الكتب فقط ولا في أوقات محددة مثل مواعيد عمل أسواق الوراقين أو حتى الشوارع التي يتجمع بها الناس لقضاء حوائجهم بل في الأماكن المقدسة ، وذلك من باب " لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ "(*)

ثامناً : أدوات دلال الكتب :

تعددت أدوات دلال الكتب ووسائله التي كان يستعين بها في الترويج للكتب والدِلالة عليها وبيان خصائصها ومميزاتها حتى يتمكن من جذب القراء إليها والحصول على أكبر قيمة مادية من بيعها ، ومن أهم هذه الأدوات :

1- مؤلف الكتاب :

إن خبرة المؤلف ومكانته بين المؤلفين والعلماء كان لها عامل كبير في الترويج للكتب في شتى البلاد الإسلامية ، فإن كان المؤلف من كبار العلماء أو المؤلفين البارزين سهل عمل دلال الكتب في بيع الكتاب والترويج له وربما سعى إليه تجار الكتب بأنفسهم ، كما كان يُرسل الحكم المستنصر التجار إلى البلاد بحثاً عن الكتب والمؤلفات ، فقد كان محباً للكتب ، وبمجرد علمه أن أبى الفرج الأصفهاني ألف كتاباً بعنوان " الأغاني " أرسل في شرائه ألف دينار من الذهب العين " ، كما فعل مع القاضي أبى بكر البهلى المالكي في شراء الكتب منه .(60)

2- موضوع الكتاب :

من المؤكد أن المصاحف القرآنية أتت في المرتبة الأولى والتي لا تدانيها مرتبة ، فكان ثمة إقبال كبير على شراءها بغرض القراءة والتعبد والتماس البركة ، كما أن هناك من الكتب ما أعلنت عن نفسها بسبب الموضوعات التي تُعالجها ، فقد كانت هناك من الموضوعات التي يُقبل عليها طلاب العلم والدارسين وكافة فئات المجتمع القارئ خصوصاً فيما يتعلق بعلوم التفسير والحديث ، مثل كتاب " فتح البارئ بشرح صحيح البخاري " الذي بلغت شهرته شتى بلاد العالم الإسلامي حتى " استدعى طلبه ملوك الأطراف بسؤال علمائهم لهم في طلبه وانتشر في الآفاق حتى بيع بنحو ثلاثمائة دينار " بالرغم من وجود شروح سابقة لكتاب " صحيح البخاري " فهذه المؤلفات كانت تعلن عن نفسها في أسواق الوراقة ومن يعملون بها وفى مقدمتهم دلال الكتب فكانت مادة سهلة في بيعها وتحقيق العائد المادي الوفير من ورائها .(61)

وكان من الضروري أن يتحرى دلال الكتب الموضوع الذي يعالجه الكتاب المراد بيعه ، فقد كان من حقه ألا يبيع كتب ذات موضوعات بعينها ولفئات محددة ، وذلك لإعتبارت تؤثر على المجتمع الكائن آنذاك ، فقد كان من حقه ألا يبيع الكتب الدينية لمن علم أنه يضيعها ، أو من يريد أن يشتريها ليفحصها ويحلل موضوعاتها بغرض انتقادها والطعن عليها ، وألا يبيع شيئاً من كتب أهل الأهواء والبدع ، وكذلك كتب المنجمين ، والكتب المكذوبة ، وكان يَحرُم على دلال الكتب أن يبيع المصحف الشريف لشخص كافر ، ولا يبيع له شيئاً من كتب الفقه والحديث .(62)

3- جودة الخط وصحته :

كانت جودة الخط فضلاً عن صحته وسلامته من التصحيف والتحريف من أهم أدوات دلال الكتاب عندما ينادى على كتاب بعينه ويعرضه على الناس ، فخط يوسف خُر زاد النجيرمى اللغوي المتوفى سنة 423هـ كان يتنافس عليه المصريين إذا وقع ، وكان القفطى يحضر حِلق بيع الكتب ، فإذا نادي المُنادى : كتاب كذا بخط النجيرمى ، رُفعت نحوه الأعناق . كما رأى بخطه نسخة من كتاب " ديوان جرير " وقد أُبيعت بعشرة دنانير ، وكتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجُمحي وقد بيعت بمبلغ قريب من ذلك .(63)

ويُذكر أن موهوب بن أحمد بن الحسن الجواليقى المتوفى سنة 539هـ كان " مليحُ الخط ، يتنافس الناس في تحصيله والمُغالاة به "(64) ، وله كثير من الكتب أشهرها كتاب " شرح أدب الكاتب " وكتاب " الروضتين " كما أنه عاش في بغداد إبان القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس الهجري (65) (66) حيث كثرت بها حوانيت وداكين الوراقين ودلالين الكتب ولعل أشهرهم سعد بن على الحظيرى المشهور بدلال الكتب وكان " وخطه كنقش المزج الحلو كالممزوج المصرف صفو ، ومن كل عيب خلو "(67) بمعنى أنه " شبيه بالممزج " وهو عبارة عن نسيج بديع من الحرير المطرز بالذهب كان يُصنع في بغداد ويبدو أنه كان شائعاً خلال القرن السادس الهجري .(68)

الذي قرأ الأدب على الجواليقي وأقرب منهما عبد الله بن أحمد بن الخشاب المتوفى سنة 567 هـ صاحب المؤلفات الغزيرة والكتب المفيدة ، وإذا كتب كتاباً بخطه يُشترى بالمئين ، وتنافس عليه بواعث

المستفيدين[69] لجودة خطه وضبطه وصحته التي كانت تُعد من أهم الدواعي لشراء كتبه فضلاً عنه علمه الوافر .

4- الشكل المادي : مثل التجليد التزيين والتذهيب .... الخ :

نشأ فن التغليف والتجليد أساساً لحفظ الكتب وكان تجليد الكتب وترميمها حرفة وفناً ازدهرا في شتى بلاد العالم الإسلامي ؛ وكان الاهتمام بذلك نظراً لقيمة الكتاب وأهميته وفائدته للعلماء وطلاب العلم والدارسين وغيرهم ، وكانت الكتب والمخطوطات المجلّدة يدويّاً من النفائس التي يحرص المترددين على حلقات بيع الكتب وأسواق الوراقة على شرائها واقتنائها وجعلها في مكتباتهم الشخصية .

وإن كان دلال الكتب يعتمد في ترويج بضاعته من الكتب والمؤلفات على مكانة المؤلف وموضوعات الكتب فضلاً عن جودة الخط وصحته ومدى ضبطه فإنه ثمة اهتمام بالشكل والمظهر الخارجي للكتب سواء تجليدها أو تذهيبها من جانب الراغبين في شراء الكتب ، فقد يُغالى المرء في شراء كتاب ما لمظهره فقط ولا يدرى ما يحتويه الكتاب من موضوعات ليُزين به ركناً في خزانته أو مكتبته الشخصية مثلما حدث في سوق قرطبة أن اشترى رجل من عامة الناس كتاباً لمظهره فقط ، وظل يرفع في ثمنه لدلال الكتب حتى اشتراه بالرغم من أن أحد العلماء كان يريده لما يحويه من موضوعات قيمة وذات فائدة .[70]

5- الكتب أو النُسخ النادرة :

ليس من شك في أن النوادر من الكتب سواء كانت أصلية أو حتى نُسخ من الأصل ذاتها كانت من بين أهم الأدوات والوسائل التي تساعد دلال الكتب في بيع الكتب ، وتزداد قيمته فضلاً عن ندرته إذا كان مصحفاً قرآنياً ، فقد ذكر أن مصحف عثمان بن عفان قد وجده رجل ودخل به سوق تلمسان وهو غير عالم بمقداره ، وعرضه للبيع ، وكان السمسار ينادى عليه بسوق بيع الكتب بسبع عشر درهماً ، فزاد بعضُ من يعرف قيمة هذا المصحف ، فأسرع أحدهم وأبلغ يغمر أسن بن زيان زعيم بني زيان مؤسس سلطنة بني عبد الواد في المغرب الأوسط المتوفى سنة 681هـ ، فبادر بالأمر فأخذه وأمر بصونه والعناية به .[71] وهذه النسخة هي إحدى النُسخ الست التي أمر عثمان بن عفان بنسخها وتوزيعها ، أربعة منها على الأمصار الإسلامية ، وأبقى نسخة لأهل المدينة ونسخة احتبسها لنفسه وهى ما عُرف بالمصحف الإمام .

تاسعاً : دور دلال الكتب في العملية العلمية والفكرية والثقافية :

لعب دلال الكتب دوراً كبيراً سواء في أسواق الوراقة والوراقين أو بين العلماء وطلاب العلم ، ويمكن بيان دوره بشكل عام حيث أنه :

1- كان حلقة الوصل بين أصحاب الكتب ومن يرغب في شرائها والحصول عليها ، فضلاً عن تجار الكتب في شتى أنحاء البلاد .
2- يعد وسيلة من وسائل الاتصال بين العلماء وبعضهم بغض النظر عن تخصصاتهم واهتماماتهم وبلادهم التي يقطنون بها أو التي يرحلون منها أو إليها .
3- أنه ساعد العلماء وغيرهم من الفئات الأخرى التي كانت ترغب في بناء وتكوين مكتبات أو خزائن خاصة تضم صنوف الكتب التي بحثوا عنها أو رغبوا في اقتنائها .
4- انه كان يحيط العلماء والمؤلفين علماً بآخر ما أنتجته القريحة العربية سواء الكتب العربية أو المنقولة والمترجمة من لغات أخرى .

وعلى أية حال يمكن القول أن أسواق الوراقين كانت بمثابة المنتديات الثقافية ، كما كان الدلالون ذوى فكر وثقافة كبيرة ، وكان لهم من الكتب والمؤلفات التي هي من خالص فكرهم ، منها ما وصل إلينا ومنها ما لم يصل إلينا لأسباب أو لأخرى وليس من شك فى أنها أثرت في جوانب شتى في الحياة العلمية والتعليمة والثقافية عند المسلمين عبر عصور الحضارة العربية الإسلامية .

مصادر ومراجع الدراسة :

1- ناظم رشيد . سعد بن على الحظيرى الملقب " بدلال الكتب " .- في : مجلة معهد المخطوطات العربية .- القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، جمادى 1409 ه / يناير 1989.- ص ص169 – 195.

2- Prytherch, Raymond John. Harrod's librarians glossary and reference book . – 10th ed . – Great Britain : MPG Book Ltd , 2005 .- P 81.

3 - Prytherch, Raymond John: Op, Cit.- P 68 .

4 - Prytherch , Raymond John: Op, Cit.- P 67 .

5 - Locum Citatum .

6- أحمد محمد الشامي ، سيد حسب الله . الموسوعة العربية لمصطلحات علوم المكتبات والمعلومات والحاسبات .- ط1.- القاهرة : المكتبة الأكاديمية ، 2001 .- مج3 ، ص1858

7 - Prytherch , Raymond John: Op, Cit.- P. 561 .

8- شعبان عبد العزيز خليفة . المحاورات في مناهج البحث في علم المكتبات والمعلومات .- ط1.- القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 1997 .- ص35 .

9- ابن خلدون ، ولى الدين عبد الرحمن محمد (732- 808 هـ) . مقدمة ابن خلدون / حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه عبد الله محمد الدرويش .- ط1 .- دمشق : دار يعرب ، 2004 .- ج 2، ص128.

10 - السمعانى ، أبى سعد عبد الكريم محمد بن منصور التيمى (ت 562هـ) . الأنساب / حققه وراجعه أكرم البوشى .- ط1 .- القاهرة : مكتبة ابن تيمية ، 1984 .- مج 12 ، ص236.

11- شعبان عبد العزيز خليفة . الكتب والمكتبات في العصور الوسطى : الشرق المسلم – الشرق الأقصى .- ط2 .- القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2001 .- ص261 .

12- يسرى عبد الغنى عبد الله . من تاريخ المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية " المكتبات الخاصة " .- الكويت : دار ناشري للنشر الإلكتروني ، يونيه 2012 .- س 5 ، ع 16 .- ص 52 .

13- ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم . لسان العرب .- بيروت : دار صادر ، [د . ت] .- مج 11 ، ص249 .

14- الجوهري ، إسماعيل بن حماد ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية .- بيروت : دار العلم للملايين ، 1990 . - مج 4 ، ص 1698.

15- الفيروز أبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817هـ) . القاموس المحيط / نسخة محققة وعليها تعليقات الشيخ نصر أبو الوفا نصر الهورينى ؛ راجعه واعتنى به أنس محمد الشامي ، زكريا جابر أحمد .- القاهرة : دار الحديث ،2008 .- ص559.

16 - المعجم الوسيط . القاهرة : دار المعارف ، 1972 . - ط2 .- ص 294 .

17- السبكى ، تاج الدين عبد الوهاب (ت771 هـ) . معيد النعم ومبيد النقم / حققه وضبطه وعلق عليه محمد على النجار ، أبو زيد شلبي ، محمد أبو العيون .- ط1 .- القاهرة : جماعة الأزهر للنشر والتأليف ، دار الكتاب العربي ، 1948.- ص144.
18- الجاحظ ، أبى عثمان عمرو بن بحر (150- 255هـ) الحيوان . تحقيق وشرح / عبد السلام محمد هارون .- ط2 .- القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، 1965 .- ج1 ، ص ص 38 -42 .
19- ابن جماعة ، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله (639- 733هـ) . تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم / اعتنى به محمد بن مهدي العجمي .- ط3 مزيدة ومنقحة .- القاهرة : بيروت : درا البشاير الإسلامية : 2012 .- ص126 .
20- الخطيب البغدادي ، أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر (392- 463هـ) . تقييد العلم / صدره وحققه وعلق عليه يوسف العش .- ط2 .- القاهرة : دار إحياء السنة ، 1974.- ج 1 ، ص 137 .
21- المقري ، أبو العباس أحمد بن محمد المقري (986- 1041هـ) . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب / حققه إحسان عباس .- بيروت : دار صادر ، 1968 .- ج 1 ، ص ص 462- 463 .
22- ابن رجب الحنبلي ، زين الدين أبى فرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد (736 – 795 هـ) . كتاب الذيل على طبقات الحنابلة / وقف على طبعه وصححه حامد الفقى .- القاهرة : مطبعة السنة المحمدية ، 1952 . ج 1 ، ص 319 .
23- الخطيب البغدادي ، أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر (392- 463هـ) . تقييد العلم .- مرجع سابق .- ص 137 .
24- الشيخ عبد الحي الكتاني (ت1382هـ / 1962م) . تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب / ضبط وتحقيق أحمد شوقي بنين ، عبد القادر سعود .- طبعة ثانية منقحة .- مراكش : المطبعة والوراقة الوطنية ، 2005 .- ص ص 30-31 . نقلاً عن : القاضي أبى الفضل عياض بن موسى اليحصبى . تدريب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك / ضبطه وصححه محمد سالم هاشم .- ط1 .- بيروت : دار الكتب العلمية ، 1998 .- ج1 ، ص 124 .
25- نفس المصدر السابق .- ص 95.
26- هونكة ، زيغريد . شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية في أوربة / نقله عن الألمانية فاروق بيضون ، كمال دسوقي ؛ راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخورى .- ط8 .- بيرون : دار الجيل ، دار الأفاق الجديدة ، 1993 .- ص 385 .
27- ابن خلكان ، أبى العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبى بكر (608 – 681هـ) . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / حققه إحسان عباس .- بيروت : دار صادر ، 1978.- ج 2 ، ص ص 366-367 .
(*) سعد بن على بن القاسم الحظيرى الوراق . كتاب لمح الملح / دراسة وتحقيق عبد العظيم يحيى ؛ مراجعة حسين نصار .- القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية ، 2007 .- 1110 ص .
28- الكتبى ، محمد بن شاكر (ت 764هت) . فوات الوفيات والذيل عليها / تحقيق إحسان عباس .- بيروت .- دار صادر ، 1974 .- مج4 ، ص184 .
29- أيمن فؤاد سيد . الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات .- ط1 . القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 1997 . - ص 165 .

30- العماد الأصبهانى . خريدة القصر وجريدة العصر / تحقيق محمد بهجة الأثري .- العراق : المجمع العراقي ، [د . ت] .- ص 248.
31- عابد سليمان المشوخي . أخلاقيات مهنة الوراقة في الحضارة الإسلامية .- في : مجلة جامعة الملك سعود ، م15، الآداب 2 ، (1423هـ/2003م) ، ص 7217 .
32 - الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله . معجم الأدباء ، أو ، إرشاد الأديب إلى معرفة الأريب . - ط1 . - لبنان : دار الكتب العلمية ، 1991 .- ج 3 ، ص ص1349 – 1352 .
33- ابن خلكان ، أبى العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبى بكر (608 – 681 هـ) .- مرجع سابق .- ج2 ، ص ص366- 368 .
34- العماد الأصبهانى . – مرجع سابق .- ص ص247- 270 .
35 - شعبان عبد العزيز خليفة . الكتب والمكتبات في العصور الوسطى .- مرجع سابق .- ص151 .
36- الكسندر ستيبتشفيتش . تاريخ الكتاب / ترجمة محمد الأرناؤوط .- الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 1993 .- سلسلة عالم المعرفة ، القسم الأول . - ص 221 .
37 - ناصر محمد عبد الرحمن رمضان . الاتصال العلمي في التراث الإسلامي من صدر الإسلام حتى نهاية العصر العباسي / تقديم حشمت قاسم .- القاهرة : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، 1995 .- ص 140.
38- الشيخ عبد الحي الكتاني (ت1382هـ / 1962م) . مرجع سابق .- ص95.
39- العماد الأصبهانى . – مرجع سابق .- ص 317 .
40- الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله . – مرجع سابق .- ج 3 ، ص1350 .
41- الكتبى ، محمد بن شاكر (ت 764هـ) .- مرجع سابق مج 4 ، ص184 .
42- القفطي ، جمال الدين أبى حسن على بن يوسف (ت 624هـ) . انباه الرواة على أنباه النحاة / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .- ط1 .- القاهرة : دار الفكر العربي ؛ بيروت :مؤسسة الكتب الثقافية ، 1986 .- ج2 ، ص 64.
43 -هونكه ، زيغريد .- ص 389 ، ص391 .
44- الزبيدى ، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 379هـ) . طبقات النحويين واللغويين / تحيق محمد أبو الفضل إبراهيم .- القاهرة : دار المعارف ، 1973.- ص ص 149 – 150.
45- القفطي ، جمال الدين أبى حسن على بن يوسف (ت624هـ) .- مرجع سابق .- ج 4 ، ص14.
46 - أيمن فؤاد سيد .- مرجع سابق .- ص 165.
47- الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله . – مرجع سابق .- ج 3 ، ص1343 .
48- نفس المرجع السابق .- مج 4 ص 1495.
49- ابن رجب الحنبلي ، زين الدين أبى فرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد (736 – 795 هـ) .- مرجع سابق .- ج1 ، ص 320 .
50- حامد الشافعي دياب . الكتب والمكتبات في الأندلس . – ط1 .- القاهرة : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، 1998 .- ص 68 .

51- الخطيب البغدادي ، أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر (392- 463هـ) . تاريخ مدينة السلام : وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها ووارديها / حققه وضبط نصه ، وعلق عليه بشار عواد معروف .- بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 2001 .- مج 13 ، ص 339 .
52- القفطي ، جمال الدين أبى حسن على بن يوسف (ت 624هـ) .- مرجع سابق .- ج2 ، ص 101 .
53- نفس المرجع السابق .- ج4 ، ص14 .
54 - الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله . – مرجع سابق .- مج 3 ، ص ص 300-301 .
55- القفطي ، جمال الدين أبى حسن على بن يوسف (ت 624هـ) .- مرجع سابق .- ج2 ، ص 220 .
56- المقري ، أبو العباس أحمد بن محمد المقري (986- 1041هـ) .- مرجع سابق .- ص 463 .
57 - العسقلاني ، أحمد بن علي بن محمد بن حجر شهاب الدين (ت 852 هـ) . الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .- حيدر أباد : دائرة المعارف العثمانية ، [د . ت] .- ج 3 ص 398 .
58- الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله . – مرجع سابق .- ج1 ، ص 2115 .
59- الكتبى ، محمد بن شاكر (ت 764هـ) .- مرجع سابق مج 4 ، ص184 .
(*) سورة الحج ، آية 28 .
60- المقري ، أبو العباس أحمد بن محمد المقري (986- 1041هـ) .- مرجع سابق .- ج1 ، ص 386.
61- السخاوى ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 902هـ) . الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .- بيروت : دار الجيل ، 1992 .- ج2 ، ص 38 .
62- السبكى ، تاج الدين عبد الوهاب (ت771 هـ) . مرجع سابق .- ص 143.
63- القفطي ، جمال الدين أبى حسن على بن يوسف (ت 624هـ) .- مرجع سابق .- ج 4 .- ص ص 72 -73 .
64- الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله . – مرجع سابق .- ج6، ص ص 2736- 2737
65- ناظم رشيد . مرجع سابق . - مج 33 ، ج 1 . ص 172 .
66- الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله . – مرجع سابق .- ج6 ، ص ص2736- 2737 .
67- العماد الأصبهانى . – مرجع سابق .- ص 248 .
68- ناظم رشيد . – مرجع سابق .- ص174 .
69- القفطي ، جمال الدين أبى حسن على بن يوسف (ت 624هـ) .- مرجع سابق .- ج2 ، ص 102.
70- هونكة ، زيغريد .- مرجع سابق .- ص ص388- 389 .
71- الشيخ عبد الحي الكتاني (ت1382هـ / 1962م) . مرجع سابق .- ص75 .

*** *** ***